

الشيخ علي حسن غلوم

من هدي سيد الشهداء

الشيخ
علي حسن غلوم

من هدي
سيد الشهداء عليه السلام



المركز الإسلامي الثقافي

النجف الأشرف

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٨ م



المركز الإسلامي الثقافي

النجف الأشرف

خليوي: ٩٦٤٧٨٠١٥٠٠٤٨٢ +

ديباجة

دعماً للجهود المباركة التي بدأها السيد الأستاذ شفيق الموسوي - المركز الإسلامي الثقافى / النجف الأشرف - والهادفة لنشر فكر وثقافة أهل البيت «عليهم السلام» أثناء المسيرة المليونية لأربعينية الإمام الحسين «عليه السلام»، وذلك بإقامة معرض كتاب لمدرسة أهل البيت، تم إصدار سلسلة كتيبات لسماحة الشيخ علي حسن غلوم يعرض فيها أقوال ومواقف رسول الله والأئمة الإثنى عشر «عليهم أفضل الصلاة والسلام»، وقد أصدر هذا العام خمسة كتيبات، بدأ فيها برسول الله، وانتهى بالإمام الحسين، وضمّنها بعضاً من خطبة ومقالاته، على أن تكتمل السلسلة المباركة في الأعوام اللاحقة.

إننا إذ نقدّم هذا العمل، فإننا نأمل في أن يكون نموذجاً يُحتذى به لخدمة مدرسة أهل البيت «عليهم السلام»، وأن يكون موضع تنافس ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.

المحتويات

- مقدمة ٥ -
- ١. سيد الشهداء ٧ -
- ٢. حسين منّي وأنا من حسين ١١ -
- ٣. النبي يحيى والإمام الحسين عليه السلام ١٨ -
- ٤. بين شعيب النبي والحسين الشهيد ٢٥ -
- ٥. الإمام الحسين عليه السلام والمُلك ٢٩ -
- ٦. كونوا مع الحسين عليه السلام ٣٤ -
- ٧. رسالة إلى إخواننا من أهل السنّة ٣٧ -
- ٨. عاشوراء الوحدة ٤١ -
- ٩. ويأبى الله إلا أن يُتمّ نوره ٤٤ -
- ١٠. الإنفاق العاشورائي ٤٩ -
- ١١. يا لفتيةِ عاشوراء ٥٦ -

مقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين،
والصلاة والسلام على حبيب قلوب العالمين سيدنا ونبينا
محمد وعلى آله الطيبين الميامين.

بين يديك مختارات من خطب ومقالات تم تقديمها من
قبل سماحة الشيخ علي حسن غلوم، إمام مسجد سيد هاشم
بهبهاني في الكويت، وعلى مدى سنوات، ونعيد تقديمها تحت
عنوان: من هدي سيد الشهداء «عليه السلام»، وتأتي ضمن
سلسلة تصدر حول هدي النبي وآله «عليهم السلام»، ومقسمة
على أجزاء تم إعدادها وإخراجها بصورة تتناسب مع الهدف
منها، وهو تقديمها إلى الجماهير الميمنية المشاركة في
مسيرة الأربعين الحسينية، ليتسنى لهم مطالعتها والاستفادة
منها خلال رحلتهم سيراً على الأقدام، أملاً في أن نكون من
المساهمين في تحقيق غاية من غايات النهضة الحسينية على
صاحبها آلاف التحية والسلام، وهي إخراج الناس من ظلمات
الجهل إلى نور المعرفة، اهتداءً بكتاب الله، واقتداءً بسنة
رسول الله، واتباعاً لهدي العترة المباركة.

اللجنة المشرفة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١)

سيد الشهداء

الشهادة في اللغة تعني: الإخبار، والحضور، والعلم، واليمين.. والشهيد في اللغة هو: مَنْ يُوَدِّي الشهادة، والحاضر، والذي لا يغيب عن علمه شئ. وكما هو واضح أن الشهادة والشهيد بالمعاني السابقة لا علاقة مباشرة لهما بالقتل في سبيل الله أو لأي هدف آخر، بل هو على عكس ذلك، لأن الموت غياب وليس حضوراً.

وعلى ما أحصاه البعض، فإنّ في القرآن الكريم ٢٦ مورداً استعملت فيها كلمة الشهادة، و٥٦ مورداً للشهيد . باشتقاقتهما . ولا نجد استعمالاً لهما في القتل، سواء في سبيل الله «عز وجل» أو في غير ذلك.

• الشهادة في الأحاديث:

نعم، في بعض الأحاديث إطلاق هذا المصطلح على المقتول في سبيل الله «عز وجل»، فعن النبي الأكرم محمد «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (أشرف الموت قتل الشهادة).

وعن الإمام علي «عليه السلام»: (... فقلت: يا رسول الله، أو ليس قد قلت لي يوم أحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين، وحيزت عني الشهادة، فشق ذلك عليّ فقلت لي: أبشر فإن الشهادة من ورائك؟..). فإن صحت تلك الأحاديث فهي تدل على أن الاستعمال كان في العهد النبوي، ولعله من وضع النبي نفسه.

• مناسبة المعنى الاصطلاحي:

ويحتمل أن الآيات من آل عمران «١٦٩-١٧١» هي الأساس في استعارة هذا المعنى لهذه الكلمة بلحاظ الحياة والرزق وحالة الترقب للمقتول في سبيل الله، قال «تعالى»: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أن لهم نوعاً من الحضور، وهو من معاني الشهادة كما قلنا.

كما ويحتمل أن يكون المعنى الجديد الاصطلاحي للشهادة والشهيد ناشئاً من كون المقتول في سبيل الله شاهداً على أمته وعلى أعدائها.. فيما أدى إلى قتله، وفي أوضاعهم ومواقفهم.

• حضور القيمة:

بل يحتمل وضع هذا المعنى لذلك اللفظ بسبب استمرار حضور المقتول في سبيل الله بقيمه وآثار تضحيته، والحضور من معاني الشهادة كما سلفت.. فكم من أناس هم على قيد الحياة ولكنهم أموات في عقولهم وأرواحهم ومواقفهم، قال «تعالى»: ﴿وَلْتَن أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ، فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُّوا مُدْبِرِينَ، وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ «الروم: ١-٣».

وكم من أناس غيب الموت أجسادهم ولكنهم حضور من خلال آثارهم وذكريهم.. أليس النبي «صلى الله عليه وآله» حياً مع كل أذان وصلاة وتلاوة للقرآن وحكم شرعي وغير ذلك؟ أليس الحسين حياً مع كل مجلس يُعقد باسمه، وكل زيارة تتم لمرقده الطاهر عن قرب أو بُعد؟

• مسؤولية إنقاذ الأمة:

إنّ هذا الخلود الذي نشهده لذكر الإمام الحسين عليه السلام ينبع من نهوضه لتحمل مسؤولية إنقاذ الأمة التي كانت تعاني من انحراف خط الإسلام، وكانت تواجه انحداراً متسارعاً في هذا الخط، ولو قرر الحسين أن يبقى في المدينة

ليتفرغ للعبادة بينه وبين ربهن فهل كان حياً وحاضراً وشاهداً بالمستوى الذي هو عليه اليوم وطوال القرون الماضية؟

ولو قرّر الحسين أن يستمر في أداء مناسك الحج ولم يخرج إلى العراق ليعلن ثورته على الظلم والباطل والفساد، هل كان حياً وحاضراً وشاهداً بالمستوى الذي هو عليه اليوم وطوال القرون الماضية؟

لا أريد أن أقلّ من شأن العبادة، ولكن عندما نكون بين خيارين، فأيهما نقدّم؟ وكيف يريد لنا الإسلام أن نصوغ شخصياتنا ونحدد مواقفنا على ضوء قيمه ومبادئه؟

• شهادة أنصار الحسين:

الصادقون الثابتون في نصرة الحسين من الذين استجابوا لندائه عند الكعبة وهو يريد مغادرة مكة قبل يوم عرفة قائلاً: (مَنْ كَانَ فِينَا بَازِلًا مُهْجَتُهُ مُوْطِنًا عَلَى لِقَاءِ اللَّهِ نَفْسَهُ فَلْيَرْحَلْ مَعَنَا فَإِنِّي رَاحِلٌ مُصْبِحًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ) هم الذين فهموا الإسلام فهماً حقيقياً، ووازنوا الأمور بمعايير سليمة.

أما من تخلف عن نصرته بلا عذر فإنما كانوا يعانون من مرض انعدام الإرادة مع وضوح الطريق، أو من انقلاب المفاهيم والموازن الإسلامية عندهم.

إنَّ الشهادة حضور دائم في ساحة المعركة التاريخية بين
الحق والباطل، بين هاييل وقايل، بين إبراهيم والنمرود، بين
موسى وفرعون، بين محمد وأبي جهل، بين الحسين ويزيد..
ولذا بقي الحسين وأنصاره - وسيبقون - حاضرين رغم
موتهم، وفيهم المراهق والشاب..
بينما غاب كل الذين تركوه وحيداً ممن فضّلوا العزلة بعنوان
التعب، وممن أخلدوا إلى الأرض، وممن جنبوا فانسحبوا من
المواجهة، وإن عمّروا مائة سنة!

(٢)

حسين مني وأنا من حسين

روى الإمام أحمد بن حنبل والترمذي عن يعلى بن مرة العامري أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: (حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، حسينٌ سبط من الأسباط).

• تعبير متكرر:

هذا النوع من التعبير ورد عن النبي «صلى الله عليه وآله» في حق أمير المؤمنين علي «عليه السلام» حيث روي عنه أنه قال: (علي مني وأنا منه)، وشبيه منه ما جاء بحق الزهراء ابنته عليها السلام: (فاطمة بضعة مني) .. ومن الواضح أن المسألة ليست مسألة نسب، فهل يشك أو يجهل أحد ذلك؟ فما هي إذاً الرسالة التي تحملها هذه الكلمة في طياتها؟

وكذلك نرى أن قول النبي «صلى الله عليه وآله» في حق الحسين أنه سبط من الأسباط، لا يعني أنه ابن ابنته كما هو شأن سائر أبناء البنات، فهذا منه هذرٌ من القول، حاشاه «صلى الله عليه وآله»، بل إنَّ الألف واللام في كلمة «الأسباط»

للعهد الذهني من خلال ما تعلّمه المسلمون من القرآن الكريم، وعرفوه عن الأسباط الذين قادوا بني إسرائيل بعد النبي موسى ويوشع بن نون «عليهما السلام» روحياً وميدانياً، وذكروا في العهد القديم^(١) بعنوان «القضاة»، وامتدّحهم كتاب الله وجعلهم مع النبيين في قوله «سبحانه»: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ «البقرة: ١٣٦».

• الامتداد الرسالي في الذرية:

فالله «تعالى» يتحدّث عن هذه السلسلة المنحدرة من السلالة الطاهرة للخليل إبراهيم «عليه السلام» ممّن تحمّلوا أعباء الرسالة من بعده حيث اصطفاهم الله.. ومنهم الأسباط.. فأدّوا الأمانة.

١. الكتاب المقدّس عند النصارى ينقسم إلى قسمين، الأول منهما يُطلقون عليه اسم «العهد القديم»، ويطلق عليه اليهود اسم «التناخ»، وهو يبدأ من التوراة ليشمل كتباً عديدة منسوبة إلى بعض الأنبياء وأحبار اليهود، ومن بينها الزبور «مزامير داود». أما القسم الثاني والذي لا يؤمن به اليهود فهو المسمى لدى النصارى «العهد الجديد» ويشتمل على الأناجيل الأربعة وكتب أخرى منسوبة لبعض الحواريين وأتباع المسيح.

وهكذا هو حال الحسين «عليه السلام»، فهو يمثل الامتداد الرسالي للنبي «صلى الله عليه وآله» كما مثل الأسباط الامتداد الرسالي للخليل إبراهيم «عليه السلام» وللأنبياء من نسله، بغض النظر عن عنوان النبوة، وقد انتهت النبوة بختمها بمحمد.

وهذا ما نلاحظه في قول النبي «صلى الله عليه وآله» لعلي «عليه السلام»: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي) وقد بين الله «سبحانه» تلك المنزلة فيما حكى عن موسى أنه قال: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي، كَيْ تُسَبِّحَكَ كَثِيرًا، وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا، قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ «طه: ٢٩-٣٦»، وقوله «تعالى»: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ «الأعراف: ١٤٢».

وهي لا ترتبط بالقيمة فقط، بل لها علاقة . ابتداءً . بالمهام الموكلة إليه «عليه السلام» والتي تشترك في عناوينها بالمهام التي أوكلت لهارون «عليه السلام».

كما أن إيكال هذه المهام إلى علي «عليه السلام» لم يأت من فراغ، بل جاء وفق ما يتحلى به الإمام من صفات تؤهله لأن

ينال شرف حمل الرسالة من بعد رسول الله «صلى الله عليه وآله» والدفاع عنها، كي تُكْمَل مسيرتها، تماماً كما جاء في قول النبي: (إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ لِيُقَاتِلَنَّ عَلَى تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ كَمَا قَاتَلْتُ عَلَى تَنْزِيلِهِ) ثم أشار إلى خَاصِصِ النَعْلِ فِي الْحِجْرَةِ، فكان علياً.

• الحسين من الأسباط:

إذاً فالنبي «صلى الله عليه وآله» بهذه الكلمات يقدم للمسلمين سبطه الحسين على أنه أحد أهل بيته الذين يحملون من صفاته ومن المؤهلات ما يجعلهم مصطفىين من الله «تعالى» ومن رسوله لحمل أعباء الرسالة، ليكونوا الامتداد الطبيعي لكل الجهود المباركة لرسول الله والتي تساءل المسلمون عن الأجر الذي يمكن أن يناله النبي في قبالتها، فأخبره الله «تعالى» أن يقول لهم: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ «الشورى: ٢٣».

• قتال على التأويل:

وإذا كانت جهود النبي وجهاده قد انصبت كلها لأجل نشر وترسيخ الرسالة، فإن جهود أهل بيته انصبت في مواجهة كل محاولات تحريف تلك الرسالة عن مسارها.. وجاءت المواجهة في كربلاء لتمثل قمة القتال على التأويل، ففي ذلك اليوم

تجلت كلمة رسول الله: (حسين مني وأنا من حسين)، فهل يمكن لغير من هو من رسول الله أن يقف ذلك الموقف بكل صلابه ويقدم كل تلك التضحيات بعزيمة كالجبال الراسيات، حتى قال القائل: (فوالله، ما رأيت مكسوراً قط) أو مكثوراً كما جاء في نص آخر، أي تكاثر عليه الناس وهو لوحده أو في قلة من أنصاره (قد قُتل ولده، وأهل بيته وأصحابه، أربط جأشاً ولا أمضى جناحاً منه، ولا أجراً مقدماً، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله، إن كانت الرجالة لتتكشف من عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شد فيها الذنب).

• اندماج رسالي:

لقد جاءت الكلمة النبوية (حسين مني وأنا من حسين) لتصور حالة الاندماج والتداخل بينهما في مقومات حمل الرسالة الإلهية.. اندماجاً وتداخلاً مثل روعة تجسيد الرسالة في يوم عاشوراء، من حيث القيم والمبادئ والأخلاقيات والتضحيات.. فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله قد مثل التجسيد الحي لرسالة السماء وهو مبلغها، فقد مثل الحسين «عليه السلام» التجسيد الحي والمتجدد لرسالة السماء وهو المدافع عنها، والمعيد إليها الحياة بعد أن أعملت فيها معاول الهدم كل صور التحريف والتشويه والتدمير على مستوى العقيدة والشريعة والقيم والأخلاق والسلوك.. حتى كادت

أن تموت، يُقدّم محلّها إسلامٌ لا صلة له بحقائق القرآن، ولا امتداد له في سنة النبي.

وإذا كانت النبوة قد انقطعت بوفاة رسول الله.. فإنَّ شبلَ النبي.. سيدَ الشهداء.. أباعده الله الحسين نهض من واقع مقام الولاية ليبعث الروح في الرسالة من جديد حين أراق في ساحة القتال دمه الزكي.. ودماء مَنْ معه من الثلة الرسالية المؤمنة التي آمنت به فأزرتة.

هكذا كان الحسين من رسول الله.. وكان رسول الله من حسين.. وهل انتهت رسالة عاشوراء؟

إن إحياءنا لذكرى استشهاد الحسين يعني أن نجعل من عاشوراء ساحةً لتعميق الرسالة وترسيخ الإسلام، ليكون الناس مسلمين أكثر، وليكونوا ملتزمين أكثر، وليكونوا حاملين للرسالة أكثر.

(٣)

النبي يحيى والإمام الحسين عليهما السلام

قال «تعالى»: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ «مريم: ٧».

كانت ولادة يحيى بشارةً كبيرةً لأبيه النبي زكريا «عليهما السلام»، لأنه كان يعيش قلق الأوضاع الرسالية التي يمر بها مجتمعه آنذاك، وهو ما عبّر عنه بقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ «مريم: ٥-٦».

فقد بذل الأنبياء جهوداً كبيرة من أجل إصلاح مجتمع بني إسرائيل، إلا أن هذا المجتمع المتمرد كان ينقلب على عقبيه، وينغمس في الماديات، وفي أنواع المعاصي، بما في ذلك الشرك بالله «سبحانه وتعالى»!

وكان لكهنة بني إسرائيل دوراً رئيساً في هذه الانحرافات، وإنما عبّر عنهم زكريا «عليه السلام» بعنوان «الموالي»، لأن من معاني هذه الكلمة: (أقارب الرجل من جهة الأب).

ومن المعلوم أن الكهانة كانت في ذرية هارون أخي موسى
«عليهما السلام»، وذكرىا منهم.

لقد خاف زكريا «عليه السلام» على الرسالة من بعده، بأن
يبرز بعض الكهنة المنحرفين، وسيسيطروا على الشؤون الدينية
للناس بشكل كامل، فيفسدوا ما أصلحه . هو . والأنبياء على
مدى سنوات طويلة.

ولذا سأل الله «عز وجل» أن يهب له ولياً، ولدأ ذكرأ يكون
تقياً طاهراً ترعاه العناية الإلهية كما هو شأن مريم بنت
عمران: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ
ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ «آل عمران: ٢٨»، وذلك لكي
يقوم بالمسؤولية من بعده، فمهما ارتفع شأن السيدة مريم،
فإنها لن تستطيع ولن يُسمح لها بأن تقوم بهذا الدور.

• هيرود الطاغية:

وُؤلد يحيى، الإنسان الطاهر، النقي الروح، الطيب
السيرة.. وأوتي النبوة، ونهض بمسؤولياته الصعبة في مواجهة
التحديات المختلفة: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ
صَبِيًّا﴾ «مريم: ١٢».

في ذلك الوقت، كان الطاغية الحاكم على جزء من
أرض فلسطين والأردن هو الملك «هيرود» الحليف الأمين

للإمبراطورية الرومانية. ومن بعده جاء ابنه «هيرود أنتيباس» الذي حكم جزء من مملكة أبيه، وواجهه النبي يحيى بقوة لظلمه، كما واجه أحرار وكهنة اليهود الفاسدين، ودعا الجميع إلى التوبة، وإلى تذكر يوم القيامة، وبشّرهم بنبوة روح الله المسيح «عليه السلام» الذي يصغر عنه بسنوات قلائل.

لقد نهض عيسى «عليه السلام» للدعوة في الضفة الغربية لنهر الأردن، بينما نهض بها يحيى «عليه السلام» في الضفة الشرقية، حيث كان طابع ذلك المكان صحراوياً يتسم بالحياة الفطرية البعيدة عن المدنية.

عاش يحيى «عليه السلام» حياة بسيطة جداً في ملبسه ومأكله ومشربه ولم يتزوج، ليواجه بذلك المادية المستفحلة في مجتمعه، والتي اعتبرها أساس خطاياهم.

ومن طريف وغريب ما قرأت في موسوعة «قصة الحضارة» لمؤلفها «ول ديورنت» أن هؤلاء الأحرار كانوا يتشددون في تعاليم الطهارة الجسدية وأمثال ذلك، في الوقت الذي أباحوا فيه الربا إشباعاً لنهم الناس.

• استشهاد يحيى النبي:

وتأمّرت عليه الأطراف المختلفة.. فقد سجنه «هيرود أنتيباس» خوفاً منه وتحت تأثير تحريضات أحرار وكهنة

اليهود الفاسدين، ثم قتله في نهاية المطاف بطلب من زوجته المعروفة بفسقتها.. وقد قُطع رأسه الشريف، فُدُن في دمشق على ما هو المشهور، بينما دُفن جسده في فلسطين.

وبعد ذلك بسنوات، جاء الانتقام الإلهي من ذلك المجتمع الظالم والفاسد.. المجتمع الذي كان ينبغي له أن ينصر هذا النبي الكريم، فإذا به بين خاذل ومتآمر على قتله!

وقد أكد هؤلاء الخاذلون المتآمرون طغيانهم من خلال عدائهم للمسيح أيضاً، وهم الذين كانوا ينتظرون قدومه، ويُطلقون البشارات بظهوره، ليتحقق لهم وعلى يديه الخلاص، فإذا بهم يقومون بالتآمر عليه مع الرومان، ويحاولون قتله صلباً.. فأنجاه الله.

• دمار دولة بني إسرائيل:

وهكذا لم يكد النصف الثاني من القرن الميلادي الأول يبدأ حتى انتشرت الفتنة في مجتمع اليهود. وانقسموا إلى فئتين متقاتلتين، فئة الأغنياء المتحالفة مع الرومان، وفئة الفقراء.. ووقع القتل بين الطرفين، وقتل من الأغنياء وحلفائهم في عام «٦٨ م» اثني عشر ألفاً.

ثم وقعت الفتنة في مدينة أخرى بين اليهود وغيرهم، فُقتل في ذلك اليوم من اليهود عشرون ألفاً، وبيع الآلاف منهم بَيَع

الرفيق.. كما وقُتل من اليهود عشرة آلاف في دمشق.

وبدأ اليهود بالانتقام في المدن المختلفة، وأعلنوا الثورة على الرومان والأغيار، وانتشر الموت بين الطرفين، حتى صارت الجثث تملأ المدن دون أن يدفنها أحد. وانتهت المواجهات بسيطرة اليهود على أكثر المناطق التي كانوا يستوطنون فيها.

وفي عام «٧٠ م» حاصر القائد الروماني «تايّس» القدس لمدة خمسة أشهر، واضطروا لأكل الجثث التي صارت ملقاة في الأزقة، ولما ازدحمت بها ألقيوها من فوق السور إلى خارج المدينة.. وسقطت القدس بيد الغزاة، فأحرقوا هيكل سليمان، وقتلوا أعداداً هائلة من اليهود، وأسروا منهم عشرات الآلاف، واضطر قرابة المليون منهم إلى الهجرة في المناطق المختلفة، وتحولوا إلى لقمة سائغة للمجتمعات التي كانت تُبغضهم وتُبغض سلوكياتهم المنفرة، فقتلوا من جديد زرافات ووحداناً.

• سنة الانتقام الإلهي:

هذه صورة من صور الانتقام الإلهي، وقد جاءت وفق السنن والقوانين الإلهية: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ «آل عمران: ١٣٧».

فالطاغوت يزداد استكباراً حين يجد أن المجتمع يخذل أنبياءه والمصلحين المقدسين فيه، ولا يهبُّ لنجدتهم وخلاصهم، بل

ويتأمر عليهم ويسلمهم إليه! إن مثل هذا المجتمع لا يمكن أن يحترمه طاغية أو أن يركن إليه.. بل هو مجتمع لا يستحق إلا أن يُسحق، ويُستضعف، ويُستولى على ممتلكاته ومقدّراته، وأن يحوّل أفراده إلى عبيد عنده.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ «الأنعام: ٦٥».

• الانتقام الإلهي للحسين:

وهذا بالدقة ما جرى بعد عاشوراء.. في المستدرك على الصحيحين برقم «٢٠٧٤» عن ابن عباس قال: (أوحى الله إلى نبيكم «صلى الله عليه وآله»: أني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً، وإني قاتل بابن ابنتك سبعين ألفاً، وسبعين ألفاً). وأورد القرطبي هذا الخبر في تفسير الآية «٧» من سورة الإسراء.

وروى المجلسي في بحار الأنوار عن الإمام علي بن الحسين «عليهما السلام» قال: (خرجنا مع الحسين «عليه السلام» فما نزل منزلاً ولا ارتحل منه إلا وذَكَرَ يحيى بن زكريا «عليهما السلام». وقال يوماً: من هوان الدنيا على الله أن رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل).

لقد كانت الجريمة الكبرى التي ارتكبت في يوم عاشوراء بحق الإمام الحسين «عليه السلام» وأنصاره وأهل بيته مُفْتَحاً لارتكاب المزيد من الجرائم. فقد وجد يزيد أن المجتمع الذي أسلمَ الحسينَ وخذله مجتمَعٌ لا حرمة له، ومَن يسترخص دمَ الحسين - كيزيد - سيسترخص كل دم آخر!

ولذا لم يتردد في محاصرة المدينة المنورة، وإباحتها لجيشه ثلاثة أيام، وإيقاع القتل في أهلها وهتك الأعراض ونهب الممتلكات بما يفوق الوصف، ويندي له الجبين، حتى ألزم الناس فيها بالبيعة ليزيد على أنهم عبيدٌ له! ثم توجه جيشه إلى مكة المكرمة التي حوصرت، واستبيحت حرمتها، وقذفت الكعبة المشرفة بالمنجنيق! وتوالت الأحداث الدامية بعد ذلك على مدى عقود من الزمن، وامتدت على يد أمثال الحجاج وخالد القسري، وراح فيها عشرات الآلاف من الناس قتلاً في الحروب والفتن والثورات المختلفة.

ولنأخذ العبرة والحذر من سنن الله ونَقِمَتِهِ، فمن يساهم أو يرضى بما يجري حولنا في بلاد المسلمين من سفك لدماء الأبرياء وانتهاك للحرمت وتدمير للمقدّرات من أي طرف كان، فلن يكون بعيداً عن الانتقام الإلهي ليزوق بعضاً مما شارك فيه أو رضي به.

بين شعيب النبي والحسين الشهيد

تتناول الآيات الكريمة «٨٤-٩٥» من سورة هود قصة النبي شعيب «عليه السلام» ومحاولته الإصلاح في مجتمعه، وقد احتوت على مفاهيم عديدة في المنهج الإسلامي للإصلاح عند هذا النبي الكريم، نستعرضها من خلال النقاط التالية:

١. ﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ «الآية: ٨٤».

فقد عالج النبي شعيب «عليه السلام» - كسائر الأنبياء - الفساد المستشري في مجتمعه من خلال الانطلاق أولاً من قاعدة الإيمان بالله «سبحانه» وحده لا شريك له، ليكون منطلق الإصلاح واحداً، ولتعتمد أسس المعالجة على منهجية نابذة من مصدر واحد، وليكون الهدف من الإصلاح واحداً أيضاً.

٢. ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ «الآية: ٨٥».

وفيها يؤكد النبي شعيب على أن الآثار السلبية للتطفيف

والغش التجاري لن تقف عند الحد الاقتصادي، بل إن فقدان الثقة بين الناس نتيجة هذا التلاعب في الموازين والمكايل سيعم سائر المجالات الحياتية، فيشمل الجانب الاجتماعي والإداري والسياسي وغيرها، مما يفك عُرى المجتمع ويهدده بالانهيار.

٣. ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ «الآية: ٨٦».

وقد أكد النبي شعيب «عليه السلام» على أن في المال الحلال بركة وكفاية للإنسان، وهذا يُغنيه عن الطرق المحرمة في الكسب والتي تُتنزع منها البركة، وتعود بالوبال على الفرد والمجتمع.

٤. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ «الآية: ٨٦».

يبدو أن مجتمع «مَدَّين» كان ليبرالياً بصورة ما بحسب التعبير المعاصر، وهو ما تشير إليه العبارة السابقة، وقولهم ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ الآية ٨٧، فكانت قضية الحرية الفردية بالنسبة إليهم قضية حساسة، ولذا تعامل معها النبي شعيب بحذر، وواجه مقاومة عنيفة من هذا المنطلق، مما دفعه للتأكيد على أن دوره هو مجرد الإصلاح ما استطاع، لا القهر والإجبار.

٥. ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نُتْرِكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ «الآية: ٨٧».

وهذا هو العذر المتكرر والخديعة الكبرى التي ينخدع بها الناس طوال التاريخ فيما يتبنونه من معتقدات، اعتماداً على مَنْ سبقهم، واتباعاً أعمى، لا يعتمد على برهان، ولا يقوم على دليل، والقاعدة الإسلامية هي ضرورة تكوين القناعة الشخصية بالعقيدة اعتماداً على العقل والدليل والوجدان.

٦. ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ «الآية: ٨٨».

مَنْ يتصدى للإصلاح عليه أن يسأل نفسه عن مقدار إخلاصه في نيته، ومقدار المصاعب التي يمكنه أن يواجهها والتضحيات التي يقدمها، وامتناعه عن المغريات التي قد تكون مباحة ولكنها تزل من خلالها أقدام الرجال، وهذا عثمان بن حنيف الأنصاري والي الإمام علي «عليه السلام» على البصرة، يُدعى إلى وليمة فيجيب، ويسمع الإمام بذلك فيكتب إليه: (بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة قد دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها، تُستطاب لك الألوآن، وتُنقل إليك الجفان، وما كنت أظنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفوءً، وغنيهم مدعوً).

• الإمام الحسين وشعار الإصلاح:

إن الشعار الذي رفعه النبي شعيب «عليه السلام» ﴿إِنْ أُريدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ يذكّرنا بذات الشعار الذي رفعه الإمام الحسين «عليه السلام» حين قدّم أصحابه وأهله ونفسه فداءً في طريق الإصلاح: (إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمتي جدي)، فكان صادقاً فيما أعلن من أهداف لثورته، وفيما تحقق على الأرض في ساحة المعركة، وصبر في ذات الطريق حتى استشهد ومَن معه، مكذباً بذلك ما ادعاه. وما زال يدّعيه. البعض من أن الحسين غيّر رأيه حين رأى جيش أعدائه، وخيّر القوم بين ثلاثة أمور، من بينها أن يأخذوه إلى يزيد بن معاوية ليضع يده في يده، وقد فضحت حجم التضحيات في كربلاء هذه الأكذوبة، وأكّد على ذلك عقبة بن سمعان حين قال في شأن الإمام الحسين: (لم أفارقه حتى قُتل، وليس بمخاطبة الناس بكلمة في المدينة ولا في مكة ولا بالطريق ولا بالعراق ولا في عسكر إلى يوم مقتله إلا وسمعتها، والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية ولا أن يسيروه إلى ثغر من ثغور المسلمين).

(٥)

الإمام الحسين عليه السلام والملك

قال «تعالى»: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ، وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ «يوسف: ٥٥-٥٧».

في الآيات السابقة يقدم النبي يوسف «عليه السلام» نفسه للملك ليكون مسؤولاً على أموال مصر، دون أن يكون في ذلك خدشاً لموقعه كنبى زاهد، لا يرى في الدنيا غاية.. وهكذا نجد النبي سليمان «عليه السلام» - في زمن لاحق - يسأل الله «سبحانه» أن يعطيه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده.

• في طريق الإصلاح:

وإنما دفع النبي يوسف «عليه السلام» لتقديم هذا الطلب إدراكه أنه يمتلك من المميزات كالأمانة والتقوى والعلم ما يجعله قادراً على خدمة الناس من خلال هذا الموقع، وليكون ذلك منفذاً عملياً لإفهام الناس حقيقة الدين في فكره وتشريعاته وأخلاقياته ودور الأنبياء في عمارة الأرض. ولو

سعى إليه من أجل الملك والموقع المتقدم لكان خدشاً في عنوان النبوة. مع تأكيد الآيات بعد ذلك، على أن هذا الملك الدنيوي لا يمثل شيئاً عند المؤمنين المتقين، لأن الامتيازات الحقيقية إنما ينالها المؤمنون في الآخرة، وهم يعون ذلك تمام الوعي.

• الإمام الحسين والسعي للحكم:

وهناك قراءة تحليلية لخروج الإمام الحسين «عليه السلام» ثائراً، تقتضي أنه خرج من الحجاز ليؤسس حكماً في العراق، يكون منطلقاً له لإسقاط الحكم الأموي، وتحقيق الإصلاح في الأرض. البعض لا يتقبل مثل هذه الرؤية، ويعتبرها متناقضة مع شخصية كالحسين، بينما الكثير من الأدلة التاريخية والنصوص في المصادر المبكرة^(١) تساعد على تقبل هذه الرؤية، بل إن هذه الرؤية تتناغم مع الصورة القرآنية التي قدمناها، لأن خروج الإمام «عليه السلام» لم يكن طلباً للملك من أجل الملك.

• إصرار على المضي:

ولو كان خروج الحسين «عليه السلام» لغاية شخصية، لما

١. المصادر المبكرة هي التي تعود إلى القرنين الثاني والثالث الهجريين.. وإنما ذكرت المبكرة منها، لأن من المصادر التي جاءت في القرون السابعة والعاشرة وما بعدها أضافت إلى أصل القضية تفاصيل كثيرة دون إسناد ولا استناد إلى مصدر.

أصرَّ على الماضي في طريقه مع قلة العدد، ولما وطَّن نفسه على المواجهة غير المتكافئة والقتل في سبيل الله، عندما بدأت الصورة تتجلى له في الطريق إلى الكوفة.

لقد أدرك الإمام حينها أنَّ احتمالات نجاحه في تحقيق ما خرج من أجله بدأت تضعف، لكنه لم يُحدِّث نفسه بالتخلي عن المسؤولية، بل مضى بحثاً عن طريقة بديلة يحقق من خلالها الإصلاح في الأمة، ولو جزئياً، من خلال صدم الواقع في حجم المأساة، وعمق الجرح الذي سيحدث في كيان الأمة.

• موقف الإمام علي:

ولتأكيد الفكرة أقول: إننا نجد أن علياً «عليه السلام» بعد أن بويع، تمسَّك بالحكم على الرغم من خروج أكثر من فئة عليه، ووقوع الفتنة بين المسلمين بسبب ذلك، ومقتل الآلاف في حروب ثلاثة طاحنة، وبالمستوى الذي دفع البعض ليقول: أما كان الأجدر به «عليه السلام» أن يتنحَّى درءً للفتن، وحفظاً للدماء؟

ولكن عجباً لهؤلاء! وهل يُلام مَنْ بايعه المهاجرون والأنصار، أم يلام خصومه؟ هل يُلام مَنْ يريد الإصلاح في الأرض وليعطي كل ذي حقَّ حقه، أم ذاك الذي يسعى للملك من أجل الملك؟ يقول «عليه السلام» في حق خصومه مؤكداً هذه

الحقيقة: (كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ تِلْكَ الدَّارُ
الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. بلى والله، لقد سمعوها ووعوها ولكنهم
حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها).

وهل يحق له أن يدع الأمر كي يُعاث في الأرض الفساد؟ (أما
والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر، وقيام
الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يقرأوا
على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها،
ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولأضيئتم دنياكم هذه أزهد
عندي من عفطة عنز).

• موقفان متناغمان:

إن الذي أعطى الحق لعلي «عليه السلام» ليطمسك بالحكم
دون أن يكون طالب حكم وملك، يجعلنا ندرك أن خروج
الحسين طلباً للحكم ليس متناقضاً مع شخصيته وأهدافه،
فالذي يجمع الموقفين هو الغاية المشتركة، وهي الإصلاح في
أمة محمد «صلى الله عليه وآله».

مسؤولية الحركات الإسلامية:

وإذ كان ديدن الأنبياء والأوصياء والأتقياء، البحث
عن سبل الإصلاح، لأنها من مسؤولياتهم التي يبذلون في

طريق تحقيقها النفس والنفيس، ويتطلعون من خلالها إلى رضوان الله والدار الآخرة، لذا فإن كل الحركات الإسلامية - السنيّة منها والشيعية - مطالبة بمراجعة دقيقة وصادقة لبرامجها ومناهجها وأهدافها وتطلعاتها، لاسيما وأن السنوات الأخيرة التي قدّمت لهم الفرص ليخوضوا تجربة الحكم في أكثر من موقع، وتحت أكثر من ظرف، كشفت عن أخطاء كثيرة وتناقضات عديدة على مستوى الأفراد، وعلى مستوى الجماعات، انعكست من خلالها صورة سلبية عن قدرة الإسلام في مضمونه الفكري والتشريعي والأخلاقي على إدارة الحكم بما يحقق الخير والصلاح للمجتمعات الإنسانية، وليُفسح المجال تلقائياً وكرّة فعل - في بعض تلك التجارب - أمام الأفراد والأحزاب التي عاثت في الأرض الفساد طوال عقود من الزمن لتعود إلى الواجهة من جديد، ولو بمسميات جديدة تحمل الطابع الوطني.

إن مسؤولية الحركات الإسلامية - لأنها تحمل اسم الإسلام وتطلق بحسب برامجها من منطلقات إسلامية - أن تُصلح ذاتها قبل أن تدعو وتعمل لإصلاح المجتمعات والأفراد، لأن الحقيقة القرآنية تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ «الرعد: ١١».

(٦)

كونوا مع الحسين عليه السلام

الناس بِطَبْعِهِمْ يميلون إلى الإنسان الصادق.. الإنسان المعروف بمصداقيته قولاً وعملاً، ولذا نجد أن أهل مكة يبتهجون حين دخل عليهم النبي «صلى الله عليه وآله» وقد اختلفوا في من يضع الحجر الأسود في مكانه، لأنهم عرفوه بالصادق الأمين، إلا أنهم سرعان ما تبدلت مواقفهم وعادوه وحاربوه واتهموه بشتى التهم، ومنها الكذب، حين دعاهم إلى توحيد الله «عز وجل» والإيمان بنبوته.. وما ذاك إلا لأن الناس متى ما تضاربت مصالحهم مع هذا الإنسان الصادق، فإنهم لن يبالوا بصدقه، وسيعادون فطرتهم قبل أن يعادوه.

ومن هنا جاء الخطاب الإلهي للمؤمنين كي يكونوا المبدئين الذين لا يتخلون عن موقفهم في الثبات مع الصادقين، فقال «تعالى»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ «التوبة: ١١٩».

• مصداقية الشعارات:

ثم إن من أهم أسباب نجاح أية حركة إصلاحية أو ثورة

تغييرية في الوصول إلى غاياتها، ثم في الاستمرار في تنفيذ برنامجها هو مصداقية الشعارات التي رفعتها. فمهما كانت الشعارات برّاقة فإنها ستتحول إلى لعنات تنصب على مطليقتها إن لم تكن لهم المصداقية عند التطبيق.

وهذا من أسباب نجاح الثورة الحسينية في تحقيق أهدافها، وإن كان تحقق ذلك أحياناً بصورة غير مباشرة وذلك من خلال الثورات اللاحقة التي انطلقت حينها في المجتمعات الإسلامية، والتي لم تكن لتنتقل لولا كسر ثورة الإمام الحسين «عليه السلام» حاجز الخوف في مواجهة الباطل.

• خلود الثورة:

كما أن هذه المصداقية من أسباب خلود تلك الحركات الإصلاحية أو الثورات التغييرية، لأن المجتمعات قد تبقى تصفق للباطل خوفاً أو مجاملةً أو مصلحةً، ولكن هذا الباطل سيزول بعد مدة، وعندها ينزاح الخوف، وتتلاشى المصالح، ويتحول التصفيق إلى لعنات.. أما الثورة الحسينية فمصداقية الشعارات المرفوعة عند التطبيق حفظ لها الخلود.

فقد صدق الحسين «عليه السلام» حين قال: (لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرُّ لكم إقرار العبيد) وصدق الحسين حين قال: (هيهات منا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك

ورسوله والمؤمنون)، وصدق حين قال: (إني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برماً) وصدق الحسين حين قال: (إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي «صلى الله عليه وآله»، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر).

وإن كانت الشهادة لم تمهل الحسين كي يؤكد مصداقيته استمراراً فيما بعد الثورة، إلا أن الناس كانوا على يقين أنه صادق فيما قاله، وهم الذين عرفوه من خلال رسول الله الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، عرفوا من خلاله أن الحسين سيد شباب أهل الجنة، وأن رسول الله «صلى الله عليه وآله» منه، وأنه من رسول الله، وأن الله يحب من أحب الحسين، وأنه مصباح الهدى وسفينة النجاة.

كما عرفوه وآمنوا بمصداقيته من خلال سيرته الوضّاءة التي لم يجدوا فيها مصلحة ممقوتة أو حباً للدنيا أو إثارة للنفس أو ختلة في قول أو فعل.

(٧)

رسالة إلى إخواننا من أهل السنة

تلخّصت أهم شعارات ثورة الإمام الحسين بن علي «عليهما السلام» في العناوين التالية:

• إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر.

• هيهات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حمية، ونفوس أبيّة من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام.

• إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم.

• عناوين مشتركة:

ولا يخفى على القارئ أن هذه الشعارات الصادقة في منطلقاتها وفي تجسّدها العملي في أحداث كربلاء وما أعقبتها، إنما تحمل عناوين عامة يقبل بها كل إنسان ذي فطرة سليمة

وعقل مدبرٌ ونفسٌ منصفة، لأن الإصلاح والمعروف والحرية وإباء الضيم والتضحية والإيثار والفداء والإخلاص والعزة والكرامة كلها عناوين هتفت بها الإنسانية طوال التاريخ البشري، وأريقَت الدماء من أجل الحفاظ عليها، وإن اختلفت الرؤى وتعددت الأديان وتغيّرت الظروف.

وهل يمكن لمن كرّمت عنده إنسانيته وإنسانيّة الآخرين أن يقبل بالظلم أو يرضى لنفسه الذل أو يشجّع على الفساد؟

وهل يمكن لمن عزّ عنده الإسلام أن يرضى بضياعه أو هدم أركانه أو إضعاف شأنه أو أن يجعل المنكر فيه معروفاً والمعروف منكراً؟

إنّ ثورة الإمام الحسين «عليه السلام» لم تخرج عن نطاق تلك العناوين والقيّم التي تجمّعنا في الإنسانية وتوحّدنا في الإسلام، فلماذا يكون إحياء ذكرى استشهاد الحسين وصحبه ذكرى فرقة وعامل تحريض ومعول هدم؟

• إحياء الذكرى :

وإذا كان المسلمون من أتباع مدرسة أهل البيت «عليهم السلام» يُحيون هذه الذكرى بصورة مجالس عزاء بدءاً من الأول من شهر محرم الحرام، فإنما يدفعهم إلى ذلك تمسكهم بالولاء لآل بيت النبي «صلى الله عليه وآله» وحبّهم

للعرة الطاهرة التي قال عنها النبي الأكرم: (عن زيد بن أرقم قال: قام رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خمأً بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما: كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي) «صحيح مسلم».

ولا أريد هنا المزايدة على أحد في حبنا لآل البيت، إلا أنني أتساءل عن السبب الذي من أجله يمتنع بعض إخواننا من أهل السنة - مع التأكيد على كلمة «بعض» - عند إقامة تلك المجالس.

ولا أفشى سراً حيث أقول أن ما يدور في بعض مجالس العزاء يتجاوز الحد ويمثل إسفيناً يشرخ جسد الأمة الواحدة، وأن بعض الغيارى على وحدة الأمة الإسلامية يسعون دائماً لحفظ التوازن العام لتلك المجالس، إلا أن ما نتمناه على إخواننا من أهل السنة أن تتسع صدورهم لإخوانهم الشيعة وأن يعملوا معاً لإصلاح كل ما فسد من أمر الأمة، فتلك هي رسالة الثورة الحسينية.

• دعوة للتدارس:

إنني أتطلع وبكل صدق إلى ذلك اليوم الذي يجتمع فيه العلماء والمفكرون والمثقفون والأدباء والفنانون من أبناء الأمة الإسلامية في ذكرى ثورة الإمام الحسين «عليه السلام» ليتدارسوا العناوين الكبرى والقيم الخالدة التي تحفظ للإنسانية كرامتها وللأمة عزتها وللمسلمين وحدتهم، لأن الحسين لم ينهض من أجل طائفة وليس حكراً على فئة، بل هو حسينٌ محمد كما قال هو «صلى الله عليه وآله»: (حسينٌ مني وأنا من حسين) ... وما بُعث محمد إلا رحمةً للعالمين.

عاشوراء الوحدة

الحاضر - في كل واقعه - لا يعيش انفصلاً عن التاريخ، وهو نتاج الماضي، ومن يرد أن يتحرك على أرض الواقع يحتاج إلى النقاط المضيئة في حركة التاريخ، ليستلهم دروس الحياة ويتخذ المواقف المناسبة، فضلاً عن أن مسألة استعادة التاريخ عن طريق إحياء ذكراه هو أمر إنساني حضاري تحافظ عليه الشعوب والمجتمعات. ولكن هل يعني ذلك أن يعيش الإنسان التاريخ كعقدة لا يستطيع أن ينفك عنها، فتتحول كل ذكرى إلى أزمة جديدة في واقع الأمة، تتطلق من خلال توزيع التهم، وتحريك نقاط الاختلاف، والتفنن في ممارسة السب واللعن على أساس تفجير الغيظ وتنفيس الأحقاد؟ بل هل نتحمل نحن مسئولية الماضي سلباً أو إيجاباً؟ ذلك الماضي الذي صنعه رجالاته ضمن ظروف محددة؟ وهل نحمل الآخرين - وفق انتمائهم - سلبيات التاريخ وما جناه أسلافهم؟

القرآن الكريم صريح في هذا الإطار إذ يقول الله «عز وجل» ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ

عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (البقرة: ١٤١). وعلى هذا لا يتحمل الشيعة في الحاضر. مسؤولية السلبات التي عاشت في دائرة الخلاف السني الشيعي في الماضي، ولا نحمل السنة المعاصرين مسؤولية ما جرى على الشيعة سلباً من قبل الذين التزموا المذهب السني في التاريخ. إذا تعامل المسلمون مع قضية عاشوراء على أنها مناسبة موجهة ضد السنة من قبل الشيعة، فذلك يعد خطأ في فهم حركة التاريخ، وإدراك حقيقة المسؤولية التي يتحملها الفرد تجاه الماضي والحاضر، فضلاً عن سوء فهم لقيم وأهداف الثورة الحسينية. فالحسين لم يخرج لفئة على حساب فئة، ولم يخرج ليجبر لفئة ضد فئة، ولم تكن حركته حركة شيعية ضد أهل السنة، ولم يكن يزيد وابن زياد يمثلان أهل السنة في جريمتهم التاريخية، ليتراشق الفريقان اليوم بالتهم والكلمات العنيفة، وليبحث كل منهما عن يتحمل مسؤولية الجريمة، الشيعة أم السنة.. ومن الضحية ومن الجلاذ.. التشيع أم التسنن.. بل كانت حركة ذات أهداف واضحة أعلنها الإمام الحسين «عليه السلام» بكل صراحة وفي أكثر من موقف، ولم يؤطرها بأي إطار فئوي أو مذهبي، بل قال (وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي «صلى الله عليه وآله»، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق

فإنَّه أولى بالحق ، ومن ردَّ عليَّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين).

كانت ثورة الحسين «عليه السلام» ثورة الحق على الباطل، وثورة العدل على الظلم، وثورة الحرية على الاستعباد، وكانت حركته منطلقة من واقع أمة جده «صلى الله عليه وآله» بكل تنوعاتها، وكانت أهدافها تصب في مصلحة كل من ينتمي إليها، ولذا كان التفاعل الإيجابي مع حركة الإمام الحسين «عليه السلام» والذي جرى على أرض كربلاء خير شاهد على شمولية هذه الحركة، فلقد انضم لأنصار الحسين من كان عثماني الهوى كزُهير بن القين، كما قاتل تحت لوائه مَنْ كان علويّ الهوى كحبيب بن مظاهر، لأنهما فهما حقيقة الثورة الحسينية ومنطلقاتها السامية . وهكذا تشهد على هذه الحقيقة سائر الثورات التي لحقت الثورة الحسينية ، والتي انطلقت من داخل البيت الأموي ومن الخوارج والعلويين والعباسيين وغيرهم. إذا أدركنا ذلك فلن تتحوّل مناسبة إحياء ذكرى عاشوراء أمراً مذهبياً يثير البعض على البعض الآخر، بل ستضحى حركة تجمع الذين اختلفوا في التفاصيل، ليأتلفوا على أرض واحدة وكلمة سواء تنبع من ضمير الإنسان، وتتوافق مع القيم الإنسانية الراسخة في وجدان كل أمة تجد للحياة قيمة تستحق التضحيات.

(٩)

ويأبى الله إلا أن يُتَمَّ نوره

أبَّت النهضة الحسينية إلا أن تبقى خالدة عبر القرون، على الرغم من كل محاولات محوها من الذاكرة، بل وتحولت إلى معين لا ينضب لثورات عديدة لاحقة. فقد تصور الأمويون بُعيد انتهاء واقعة كربلاء أنهم قد قضوا على حركة تمرد محدودة، وأنهم بذلك قد أدخلوا الرعب في قلوب الناس، فالذي يتجرأ على سيد شباب أهل الجنة وسبط النبي «صلى الله عليه وآله» ومَن معه من أهل بيته وخيرة الناس رجالاً ونساءً وأطفالاً، وبذلك الصورة الوحشية، فلا شك أنه لن يتورع عن ارتكاب ذلك في حق مَنْ سواهم. ولكنهم مكروا ومكر الله والله خير الماكرين.

• وسائل التخلص من التبعات:

وسرعان ما تبين لهم خطأ ظنهم ذاك، بل جاءت النتائج معكوسة تماماً، فقد أخرجت تلك الثورة الناس من حالة الغفلة التي كانوا يعيشونها، وجرأتهم على الحكم الأموي. ولذا بادر الأمويون لاتخاذ عدة إجراءات من بينها:

١. البحث عن كبش فداء يقدمونه على أنه المسؤول عن تلك الجريمة، دون يزيد. وما كان في البين أفضل من عبيد الله بن زياد. ولكن ابن زياد بنفسه كذب هذه التخرصات. ففي الكامل في التاريخ لابن الأثير أنه قال له مسافر اليشكري حين هرب من العراق: (أفلا أحدثك بما كنت تحدث به نفسك؟ قال: هات. قلت: كنت تقول: ليتني كنت لم أقتل حسيناً.. قال: أما قتلي الحسين فإنه أشار إليّ يزيد بقتله أو قتلي فاخترت قتله).

٢. تشويه أهداف صاحب الثورة بتصويره على أنه طالب ملك وزعامة، متغافلين عن كل كلماته التي أطلقها في نهضته، وعن كل المواقف التي اتخذها حتى فضل القتل في تلك الصحراء مع ذلك النفر القليل من أنصاره على أن يعيش ذليلاً.. وهل هذا حال طلاب الملك والزعامة؟!

٣. اتهام الحسين «عليه السلام» وأنصاره بالخروج على الشرعية الإسلامية، وقد قال القاضي ابن العربي في كتابه: «العواصم من القواصم» في تبرير قتل الحسين: (وما خرج إليه أحد إلا بتأويل، ولا قاتلوه إلا بما سمعوا من جدّه المهيمن على الرسل، المخبر بفساد الحال، المحذر عن الدخول في الفتن. وأقوال في ذلك كثيرة: منها ما روى مسلم عن زياد بن علاقة عن عرفة بن شريح قوله «صلى الله عليه

وآله وسلم»: إنه ستكون هنأت وهنأت، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَفِرَّقَ أَمْرَ
هذه الأمة وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائناً من كان-.
فما خرج الناس إلا بهذا وأمثاله!!

وهذا منه عجيب، فهل كان رسول الله «صلى الله عليه وآله»
يرضى بالظلم والفساد إِنْ صَدَرَ مِنَ الْحَاكِمِ، ويغضب إِنْ صَدَرَ
مِنَ الْمَحْكُومِ، واللَّهِ «تعالى» يقول: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ
اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ «المائدة: ٤٥» ؟

• تجربة متكررة:

وكما تعرّض الحسين «عليه السلام» وتعرّضت نهضته
لكل محاولات الإساءة والتشويه، تعرّض العلماء المصلحون
والمفكرون المخلصون والقادة الثائرون من أبناء هذه الأمة
لهجمة شرسة تطاولاً عليهم بهدف إسقاط شخصياتهم،
وتفريغ حركتهم الثورية أو الإصلاحية من محتواها، وسلبها
شرعيتها.

وأخيراً تجرّأ مَنْ تجرّأ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ مِنْ فُتَاتِ مُوَأَدٍ
المخابرات الدولية على سيد النهضة الإسلامية المعاصرة
في العراق وكبير مفكرها السيد محمد باقر الصدر المرجع
الشهيد المقتول على يد يزيد العصر، وقد قال فيه الإمام
الخميني «أعلى الله مقامه»: (كان السيد محمد باقر الصدر

مفكراً إسلامياً فذاً، و كان مؤملاً أن ينتفع الإسلام من وجوده بقدر أكبر، وأنا آمل أن يقرأ المسلمون ويدرسوا كتب هذا الرجل العظيم. لقد كان المرحوم الصدر شخصية علمية، و مجاهداً مضحياً من مفاخر الحوزات العلمية ومراجع الدين والمفكرين المسلمين، فلا عجب لشهادة هؤلاء العظام الذين أمضوا عمراً في الجهاد في سبيل الأهداف الإسلامية).

وهو بذأ يشير إلى الهدف من التصفية الجسدية للشهيد الصدر، بظن أنهم بذلك يقضون على فكره ونهضته وثورته، كما ظن الأمويون من قبل وهم يواجهون الحسين «عليه السلام».

وما أحسن مقارنة تلميذه العلامة السيد محمود الهاشمي حيث قال: (مَن كان ليصدق أن عاشوراء ستتجدد بعد مرور أربعة عشر قرناً؟ وأن حسيناً آخر من سلالة الحسين «عليه السلام» العظيم سيحضر من جديد في محراب الشهادة، ويصنع ملحمة أخرى وكربلاء جديدة؟).

• زمن بائس:

لقد تكرّرت المحاولات أبان حياة هذا العلم الكبير والمجاهد الشهيد لتشويه صورته والطعن في شخصيته وإخلاصه، تارة

باتهامه بالعمالة للاستكبار، وأخرى بالشخصانية، وثالثة
باتباع الهوى وحب السلطة، حتى إذا مضى لربه شهيداً صابراً
محتسباً، انبرى آخرون في محاولات يائسة لطمس تاريخه
الفكري والفقهي والجهادي، حتى جاء هذا الزمن البائس
بنكرة ليكيل له الاتهام بالكفر!!

إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا
أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٢٢﴾ «التوبة: ٢٢».

وكما بقي الحسين خالداً في إمامته وعلمه وجهاده
وشهادته.. سيبقى الزكي من سلالته، السيد الشهيد الصدر
خالداً في فقاوته وفكره وجهاده وشهادته

الإنفاق العاشورائي

الإسلام على الرغم من تشريع الزكاة والخمس وغيرهما من الفرائض المالية، بقي يحضّ المسلمين على الإيثار والإنفاق والعطاء بصورة أرحب، واستمرّ في فتح آفاق العطاء بأنواعه، مع التأكيد على أن يكون ذلك كلّه في سبيل الله «عز وجل» والذي يصب في مجرى الحياة، في ما تسدّ به خلّة إنسان، أو تقضي به حاجة مستضعف، أو تُغيث به ملهوفاً، أو تُطعم به جائعاً، أو تكسو به عُرياناً، وما إلى ذلك من قضايا الإنسان المحروم أو الضعيف، بالإضافة إلى العناوين الأخرى من قبيل إقامة المؤسسات الدينية كالمساجد، والخدمية كالمدارس والمستشفيات، ونشر العلم كطباعة الكتب، وما شابه ذلك بما يعود في نهاية المطاف بالنفع إلى الإنسان نفسه، وبما تتقوّم به الحضارة، وتتحقّق من خلاله التنمية في أوجهها المختلفة.

• تنوّع قرآني:

قال الله «سبحانه»: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا

اِبْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿البقرة: ٢٧٢﴾. جاءت هذه الآية المدنية بين آيات تتحدث عن الإنفاق في أبعاد مختلفة:

١. فمنها ما حثّ على الإنفاق محذراً من تسويلات الشيطان الذي يثبّط العزائم عن العطاء، كالأية «٢٦٨»: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

٢. ومنها ما بيّن قيمة الإنفاق الخالص لوجه الله، كالأية «٢٦١»: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

٣. ومنها ما نبّه إلى ضرورة الإنفاق من المال الحلال الطيب المرغوب فيه، كالأية «٢٦٧»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تَغْمِضُوا فِيهِ وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

٤. ومنها ما حذر من التعامل الخاطئ المصحوب للعطاء، كالأية «٢٦٣»: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.

٥. ومنها ما بين أهمية العطاء في السر دون المنع عن العطاء العلني، كآية «٢٧١»: (إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنَعَمًا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتَوْتَوْهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)✽.

٦. ومنها ما بين بعضاً من موارد الصرف المحببة عند الله، كآية «٢٧٣»: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾✽.

فما هو موقع الآية التي صدرت بها كلامي بين كل هذه الآيات السابقة واللاحقة؟

• النبي يتألم:

جاء في كتب التفسير أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» عندما كان يشاهد تصرفات بعض المسلمين في مجال العطاء كان يتألم أشد الألم لما يشوبها من أمور لا تحقق الغرض المطلوب من العطاء، ولربما شاب تلك العطاءات ما يحقق نتائج عكسية على مستوى الغرض من التشريع، علاوة على أنها تحبط ثواب المعطي.

وقد تحدثت الآيات عن بعض تلك الصور السلبية التي كان

يتألم منها النبي، من قبيل العطاء رياءً والامتنان على الآخذ وإهانته وتحقيره، والعطاء لا عن طيب نفس، والعطاء من المال الحرام ومن الأشياء الرديئة التي لا يرغب فيها الإنسان في الظروف الطبيعية.

• حَسُّ مرهف:

ولما كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» مرهف الحس لدرجة جاء التعبير أحياناً بقوله «تعالى»: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ «فاطر: ٨»، وتارة بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ «الكهف: ٦» وأمثال ذلك.

من هنا جاءت الآية لتخفف من مشاعر النبي وآلامه، لاسيما وأنه يلحظ هذه السلبيات في وسط المجتمع المؤمن، هذا المجتمع الذي يفترض به أن يرتقي ويتأدب بأدب الإسلام في جوانب الحياة المختلفة.. جاءت الآية لتذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن وظيفته التبليغ والهداية، أما تحقق الاهتداء ومدى قبول الناس والتزامهم بما جاء به فهو خارج عن إرادته، وهو بيد الله «سبحانه»: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

• عطاء وحكمة:

ولذا فإن رسالة هذه الآيات أن المسلم أن لا يكتفي بالعطاء، بل لابد وأن ينتبه إلى ما يحيط بهذا العطاء من حيث النية والدوافع والمشاعر والأسلوب، بل وحتى إعمال العقل، وهو ما نلاحظه في وسط الآيات التي تحدثت عن هذا الموضوع حيث جاء قوله في الآية «٢٦٨»: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. ولما كان الإنفاق في طريق إحياء الشعائر الحسينية يمثل مفردة من مفردات العطاء الذي يحبه الله «سبحانه» لما يمثله من إحياء ليوم من أيام الله، فإن ومن الضروري. ونحن نعطي في هذا الطريق. أن نؤطر هذا العطاء بإطار الحكمة وذلك من خلال:

١. التبصّر في موارد الإنفاق بما يحقق الغرض في الدائرة الأوسع، فبعض المجالس تكون ذات موارد قليلة وفي مناطق تحتاج إلى إبقاء هذه الجذوة الحسينية فيها متقدة.. نعم، وربما يرى البعض أن مثل هذه الأماكن البعيدة أو خاملة الذكر لا تحقق له المردود الذي يتوقعه على مستوى السمعة بين الناس.. وهنا المحك حيث يقيس الإنسان مدى إخلاصه لله في عطائه.

٢. تجنب ما من شأنه أن يُحبط قيمة العمل من قبيل الرياء والمن والعجب والسمعة وأمثال ذلك.

٣. ترشيد الإنفاق، فبعض الموارد قد تبلغ حد الإسراف، أو قد لا تخدم أهداف إحياء الذكرى، إن لم تكن تسيئ إليها. وللأسف أننا في الوقت الذي يوجد فيه الاقتصاد الرياضي واقتصاد السياحة الدينية وغيرهما، نفتقد (اقتصاد الاحتفالات الدينية) الذي من شأنه أن يُرشّد الإنفاقات ويوجهها في الاتجاه الصحيح.

٤. التجديد في موارد الصرف وتوزيعها بما يوسع دائرة المتلقين لرسالة عاشوراء، وعدم الاقتصار على الموارد التقليدية والمتكررة، فربما كانت هذه الموارد الجديدة أكثر نفعاً وأعمق تأثيراً من سابقتها.

• فائدة عملية:

إنَّ مَنْ يتلو آيات الله حين يمر بهذه الآية يتذكر أن قلب رسول الله «صلى الله عليه وآله» كان يتألم من السلبات التي كانت تحيط بالعطاء بالمستوى الذي ينزل فيه القرآن ليخفف من آلامه النفسية تلك.

فهل نكرّر في عطاء اتنا ذات الصورة المؤلمة، أم نسعى لنمتلك من الحكمة ما يجنبنا ذلك كله؟

• المراقبة والمحاسبة والتطوير:

إنّ علينا أن نتعامل مع إحياء الذكرى الحسينية لا على أساس أنّه مشروع روتيني نتجّزه كيفما كان، بل من خلال مسؤولياتنا تجاهه كمُنبر يندر أن يكون له مثيل، من حيث الامتداد التاريخي، ومن حيث البُعد الجماهيري، ومن حيث الرسالة، ومن حيث ما يحمله من أهمية وقداسة في النفوس.

إنّ هذا يحتمّ علينا أن نعيد النظر دائماً إلى مديات نجاحنا في جعل هذا المنبر فاعلاً في خدمة أهداف الثورة الحسينية على الصعيد الفكري والروحي والأخلاقي والقيمي والعملي، لأنّ منبر الحسين «عليه السلام» من بركات يوم عاشوراء والنهضة الحسينية.

ولنعش منبر الحسين مسؤولية رسالية في إطار العناوين الكبرى التي حددها الإمام «عليه السلام» في إعلانه: (إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي «صلى الله عليه وآله»، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب).

يا لفتية عاشوراء

• المشهد الأول:

عليّ.. يا فتى الإسلام.. حسينُك.. ريحانةُ حبيبك.. فتاك
الأبّي.. يقف بين أصحابه.. في ساحة المعركة.. وقد لفَّهم الليل
بوحشته.. وأضاء قلوبهم حبَّ فتاك.. حسين.. بضعة حبيبك
المصطفى.. وسيد شباب أهل الجنة..

وشتان ما بين موقف فتاك في كربلاء.. وموقفك يوم
صفين.. آلاف مؤلفة من السيوف تتراقص تحت أشعة
الشمس.. وحناجر أصحابك السُّراة تُنشد رَجَزَ البطولات..
وتتهفّ باسمك الذي ترتعد له فرائص الفتيان.. شتّان بين ذا
وذاك..

عليّ.. يا فتى الإسلام.. ألا ليت بضَع مئآت من أولئك
الرجال.. من هَمْدان.. من مذحج.. من كِنْدَه.. بين يدي
حسينك.. ينتصرون لنداءاته.. ويهبّون لنجدة دين جدّه..
ألا هيهات.. لو تُرك القطا ليلاً لنام.. وأنّى له بمثل أولئك
الفتية؟! فقد عزَّ الرجال.. وضمَّن بهم الزمان..

(أما بعد فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ وأوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً، ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، ألا وإني قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حل ليس عليكم مني ذمام. هذا الليل قد غَشِيَكُمْ فاتخذوه جَمَلاً، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، ثم تفرقوا في سوادكم ومداينكم حتى يفرج الله، فإن القوم إنما يطلبوني، ولو قد أصابوني للهوا عن طلب غيري)..



جاءت كلمات فتى عليّ تقرعُ طبولَ الحرب.. وتبتلي في نفوس أصحابه ثبات عزمهم.. وعلو هممتهم.. وصدق نيأتهم.. وأجال فتى عليّ بناظريه يرمق حواريه.. ربّيون ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله.. وما ضعفوا وما استكانوا.. تدورُ السنتهم بذكر الله.. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾..

ربّيون تعاهدوا ألا يُصعدوا إذا دعاهم داعي الله.. واستفزهم الشيطان بخيله ورجليه.. وأحاط بهم الموج من فوقهم ومن أسفل منهم.. حين تزوغ أبصار الرجال.. وتبلغ القلوب الحناجر.. وتتزلزل الأقدام زلزالاً شديداً..

رَبِّيُونَ أَعْطَوْهُ مِيثَاقًا غَلِيظًا.. وسألهم عن صدقهم..
فصدقوا.. وما بدّلوا تبديلاً.. إنهم أنصارُ الله.. آمنوا
وأسلموا.. وأشهدوا بذلك ربّهم.. فهم فتية آمنوا بربهم
وزادهم هدىً وربط على قلوبهم وثبتّهم تثبيتاً.. فيا لفتية
عاشوراء..



بين أولئك الفتية الأبرار.. شيخٌ جاوز الثمانين قد اختطَّ
الزمنُ على جبينه ووجنتيه كلمات.. تُبَيِّنُ عن كهلٍ كان الجهادُ
في سبيل العزة مَعْلَمَ طريقه.. ودُمُهُ المِدادُ الذي كُتِبَ به أربابُ
التأريخ قصةً مجدِ المجاهدين.. كهلٌ لا ترى في معالم كهولته
إلا فتوةً تتفجرُ شموخاً.. وتتعالى على وهن العمر.. وتضخُّ
الإباء في جوارحه..

فتوةٌ يلفُّها خشوعُ اليقين.. وتواضعُ الإيمان.. وسكينةُ الروحِ
المطمئنة التي تترقّبُ ساعة الرجوع إلى ربّها..

(أنحن نُخلّي عنك، ولما نَعذرُ إلى الله في أداءِ حقك؟)
أما والله لا أبرح حتى أكرس في صدورهم رمحي وأضربهم
بسيفي ما ثبت قائمُهُ بيدي.. ولا أفارقك.. ولو لم يكن معي
سلاح أقاتلهم به لقدفتهم بالحجارة دونك.. حتى أموت
معك.. والله لا نخلّيك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا عيبةً

رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» فيك.. والله لو علمتُ
 أني أُقتل ثم أحيأ ثم أُقتل ثم أُحرق ثم أُذرى.. يُفعل ذلك بي
 سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك.. وكيف لا
 أفعل وإنما هي قتلة واحدة.. ثم هي الكرامة العظمى التي
 لا انقضاء لها أبداً!..)

يا ملائكة الرب اشهدي أنصارَ حسين إلى الله.. فقد
 صدقوا ما عاهدوا الله عليه.. فإنهم فتية آمنوا بربهم وزادهم
 هدىً وربط على قلوبهم.. وثبتتهم تشبياً.. فيا لفتية عاشوراء..



وفي آخر القوم صبي يتناول بعنق أضاء دُجى ليلتهم التي
 زاد ظلمتها أنفاسُ قوم احتوشوا الأبرار.. وأحاطوا بهم
 يتطلعون إلى الساعة التي تُبَيح لهم سفكُ الدم الحرام..
 أنفاسُ تنفثها قلوبُ ران عليها سوء ما اكتسبت.. وأنتنَ ريحها
 حُبثُ نواياها..

صبي يكاد يتلمسُ الحلم.. يتطلع ليجدَ لنفسه مكاناً بين
 أولئك الفتية الذين أحاطوا بعمه.. دون أن يقلَّ عنهم في
 حلومهم.. (عماه!! وما نصيبي أنا من هدايا السماء!..)

وانتزع فتى علي من شفثيه ابتسامةً تفيض رحمةً.. وتقترن
 بشعور غريب يمتزج فيه الفخر بالعطف.. والعزة بالخوف..

عزةً عنوانها شموخ هذا العلوي.. وخوفٌ على وداعة أخيه
الحسن الزكيّ..

آه يا أبا محمد.. ليتك حاضرٌ في هذا المشهد.. فتخفّف عني
ثقل أمانتك.. أأمسكه على هون.. أم أقدمه فداءً للسماء؟!
انحنى فتى عليّ على ابن أخيه القاسم.. (قاسمُ أي
مُهجتي.. كيف الموتُ عندك يا بني؟) ..

تمعنّ الصبيّ في عيني عمه.. وما فتئت حدقاته تتراقصان
فرحاً.. (يا عم، كيف الموت عندي وأنا ابنُ فتى الإسلام؟ أنا
ابنُ مَنْ نادى جبريلُ باسمه هاتفاً: لا فتى إلا علي.. أنا ابنُ
مَنْ فرّجَ الكربَ عن وجهِ جدي رسولِ الله.. يا عم.. الموتُ
عندي أحلى من العسل) ..

يا جنةَ الخلدِ بُشراك.. تزيّني وتطيّبني.. هذا ابنُ الزكيّ
يشتاقي للقياك.. أيتها الحورُ بُشراك.. تهَيّئي وأعدّي
واستعدّي.. فمعشوقك.. القاسم.. آتٍ للقياك..

وبين ذلك الشيخ وهذا الفتى.. فتيةٌ آمنوا بربهم وزادهم
هدىً وربط على قلوبهم.. وثبتّتهم تثبيتاً.. فيا لفتية عاشوراء..



عاد فتى علي يستقرئ غده.. بل غدَ أولئك الأشقياء الذين
يريد لهم آخرتهم.. ويريدون له دنياهم.. وشتان بين ذا وذا..

فشبل علي ربيبٌ محمد.. فتى قريش الذي صدح بالحق هاتفاً
 (والله يا عم.. لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي
 على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يُظهره الله أو أهلك
 دونه).. وكأنَّ الزمان يدور فيستقرّ بين يدي سبطه ليعرض
 له الأمر من جديد.. دنيا قريش.. أم جنةُ الرب؟! معادلة ولا
 أيسر منها.. سقط في شَرَكها رجالٌ ورجال.. أمّا سليل النبوة
 فلا ينسى تمتّات أبيه حيدرة (يا دنيا غُري غيري.. أبي
 تعرّضت أم إليّ اشتقت؟! هيهات قد باينتكَ ثلاثاً لا رجعة
 لي فيك)..

وأغمض فتى علي عينيه.. وهوى إلى الأرض ساجداً..
 وأفاض من سكونه على ليلته سكوناً.. سكونٌ خشعت له
 النجوم.. وسبّحت معه الملائكة.. وخضعت له الأرض.. فلا
 تكاد تسمع إلا همساً.. وحملت الريح كلمات الرب تتلوها
 حناجر الصحب الأوفياء.. إنهم فتيةٌ آمنوا بربهم وزادهم
 هدىً وربط على قلوبهم.. وثبتّهم تثبيتاً.. فيا لفتية عاشوراء..



• المشهد الثاني:

(اللهم أنت ثقتي في كل كرب. وأنت رجائي في كل شدة..
 وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعُدّة).. تراويل تصعد من

شفّتي فتى علي.. وهو يتقدّم حتى وقف بأزاء جند الشيطان..
فجعل ينظر إلى صفوفهم كأنهم السيل.. (تباً لكم أيتها
الجماعة وترحاً.. أحين استصرختمونا ولهين، فأصرخناكم
موجفين، شحذتم علينا سيفاً كان في أيماننا، وحششتم علينا
ناراً اقتدحناها على عدوكم وعدونا؟! فأصبحتم إلّياً على
أوليائكم ويداً عليهم لأعدائكم بغير عدل رأيتموه بثّوه
فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم، ومن غير حدث كان منّا، ولا
رأي يفيل فينا.. فهلا. لكم الوليات. إذ كرهتمونا تركتمونا
والسيف مُشَيّم والجأش طامن والرأي لم يستخف؟... ألا
وإن البغي ابن البغي قد ركز بين اثنتين، بين السِّلّة والذِّلّة،
وهيهات منا الذِّلّة، أبى الله ذلك ورسوله والمؤمنون وحُجُورُ
طابت، وبطون طُهرت، وأنوفُ حميّة، ونفوسُ أبيّة، أن نُؤثر
مصارع الكرام على ظأر اللئام.. ألا وإني زاحفٌ بهذه الأسرة
على قلة العدد وكثرة العدو وخذلة الناصر)..

وجاء الجواب.. سهامٌ كأنها المطر.. تمرّق أحشاء السماء..
وتخرق صدور الأبرار.. الذين ما وهنوا وما ضعفوا.. بل وتّدوا
في الأرض أقدامهم.. وأعاروا الله جماجمهم.. ونظروا إلى
آخر القوم.. صلابةً وإقداماً..

وتعالى نداء البراز بين الصفوف.. واصطكّت الأسماع من
صرير كلام السيوف.. وتطايرت الأيدي والأعناق.. وتهاوى

جُنْدِ الشَّيْطَانِ إِلَى جَحِيمِ الْأَبَدِ صرعى.. وتصاعدت أرواح
فتية عاشوراء الواحد تلو الآخر.. حتى لم يبقَ مع فتى علي
أحد..

تقدّم سيّد فتية عاشوراء.. فاهتزّت الأرض من وقع خطاه..
وامتلأت النفوس هولاً من كلماته..

أنا الحسينُ ابنُ علي آليت أن لا أنثي

أحمي عيالات أبي أمضي على دين النبي

وحمل فتى علي كالليث.. وجُنْدُ الشَّيْطَانِ تنكشف بين يديه
انكشاف المعزى إذا شُدَّ عليها.. وتنهزم فلولهم بين يديه كأنها
الجراد المنتشر.. حتى أوقع فيهم ما لا يُحتمل.. (الويل لكم..
أتدرون لمن تُقاتلون؟! هذا ابنُ الأنزع البطين.. هذا ابنُ
قتال العرب.. فاحملوا عليه من كل جانب)..

وبينا فتى عليّ يقاتل الأشقياء.. إذ شقَّ سهمُ الخيانة
جبهته.. فلم يُبالِ.. بل حمل عليهم كالليث المُغضب.. يلحقهم
بأسلافهم.. ويسقي الأرض بدمائهم النجسة..

(يا أمةَ السوء.. بئسما خلّفتُم محمداً في عترته).. وهوى
على رأسه حجر.. فجّر ينبوع الطهر من جبهته.. فأخذ الثوب
ليمسحَ الدّمَ عن وجهه.. فأتاه سهمٌ تثلّثَ شعبه.. وشقَّ طريقه
نحو صدره.. حتى استقر.. عميقاً.. حيث قلب فتى علي..

تكاثفت غشاوة الدم على عيني سيدِ الفتيان.. وتباطأت
خفقاتُ قلبه الزكيّ.. وسَرتْ برودةٌ في أطرافه.. واشتعل
العطشُ في فمه.. وخارت قواه.. واحتضنَ الصعيدُ جسده..
فملاً المكان من عبق الجنة.. وأجال فتى علي بناظريه حوله..
يرمقُ أصحابه على الثرى.. وأغمض عينيه وصدى كلمات
الرب تتهادى إليه.. إنهم فتيةٌ آمنوا بربهم وزادهم هدى وربط
على قلوبهم.. وثبتهم تثبيتاً.. فيا لفتية عاشوراء..